الآثار الإيجابية للموسيقى والغناء في المجتمع الإسلامي

بقلم : د. نبيل شـــوره

الطرب غريزى فى الإنسان مولود معه . يؤيد ذلك الفقرات والعظام المثقبة المهيأة للزمير والصفير التى عثر عليها علماء الجيولوجيا فى المغارات التى قطن بها الانسان أول ظهوره على سطح الأرض ، فلا يبعد أن يكون الإنسان قد تغنى قبل أن يتكلم ، وهكذا أثرت الموسيقى فى الإنسان الفطرى والإنسان المتمدن ، اثرت فى مزاجه واعتقاداته ، وفى حياته وعاداته .. وامتزجت به أينما كان .

والإسلام دين الفطرة ، فهو لايصادم الفطرة الإنسانية ، ولكنه يواكبها راعيا لها ومرشدا لخطاها يردها إذا جنحت ويقومها إذا انحرفت .

ويهدف بحثنا هذا الى توضيح الجوانب الايجابية للموسيقى والغناء وبحث مدى امكانية توظيفهما لخدمة المجتمع الإسلامى .

ويستمد هذا البحث أهميته من الدور الهام الذى يعتقد الباحث أن الموسيقى والغناء يمكنهما القيام به فى المجتمع الإسلامى .

ويستعرض البحث بعجالة أهم الآثار الايجابية للموسيقى والغناء عبر مختلف العصور وخاصة فى القرن الأخير .

وتحتوى الدراسة على مبحثين :

- علاقة الموسيقى بـ (الدين ـ الوطن ـ التربية ـ العلاج) .
- تأثير السماع (من خلال مقدمة ابن خلدون)

أولا : الموسيقى والدين :

لقد احتضنت الأديان على اختلافها قديما وحديثا ، فنون الموسيقى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لتنسج من الحانها حلة نورانية تسبغها على المشاعر ، وتجتذب بها العواطف وتوقظ بها الأرواح الصافية لتبعث فيها نورا من الحب الآلهى الأعلى ثم تتدرج بها الى خلق العاطفة والشعور فى الجانب الروحى ثم توجيه تلك العاطفة إلى الخير وبذله للغير ، فالموسيقى السماوية التى تستمد من الدين شعاعا قدسيا ، تلعب دورا خطيرا فى حياة الإنسان ، ويقول (كونفوشيوس) الفيلسوف الصينى :

«أن الغرض الأساسى للموسيقى والطقوس ، هو تنظيم سلوك الأفراد وتعويدهم الطاعة والنظام وتحديد العلاقات الاجتماعية فيما بينهم فالموسيقى هى السبيل الوحيد لصد الأفراد عن الماديات وارجاعهم الى طبيعتهم الخيرة الروحية ، لأنها توجه الأفراد الى المعانى السامية والمثل الأخلاقية العليا وتنأى بهم عن الماديات والحقد والشر ، وذلك بفضل ماتوجده فى نفوسهم من انسجام ...

افلاطون

ويرى الباحث أنه لابد أن يصحب الحضارة المادية حضارة روحية تهذب النفوس وتسمو بالعواطف وتغذى الروح بقدر ما تقوم به الحضارة المادية من توفير أسباب السعادة والراحة للإنسان وتسخير قوى الطبيعة وفق مشيئته ، وإخضاعها لسلطانه .

فهذان الجانبان من الحياة الإنسانية ينبغى لهما أن يجتمعا وأن يصادفا قدرا واحدا من الرعاية وذلك لأن الاندفاع وراء المادة فقط قد يؤدى إلى الانحطاط ، وربما يهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيوان .

وإذا كانت الحضارة المادية تقوم على العلم والاختراع ، فإن الحضارة الروحية تقوم على الآداب والفنون ، فالعلم والاختراع وسيلتان أوليان تقتحمان أسرار الطبيعة وتسعدان الإنسان فى حياته الخارجية المادية .

أما الأدب والفن فإنهما وسيلتان تفتحان مغاليق النفس البشرية وتنميان قواها الكامنة وتقدمان لها مايلزم من الغذاء الروحى لتلك الحياة الباطنة .

وحاسة السمع التى تعتمد عليها الموسيقى من أرهف الحواس جميعا لأنها تتأثر بالذبذبات والاهتزازات والموجات الصوتية التى تنشأ من احتكاك الأشياء أو اصطدامها دون ملامستها .

وقياسا على هذا تكون الموسيقى أرقى الفنون جميعا لأنها أرهفها وأقلها كثافة ، ولأنها تتجاوز عالم المادة العنصرى وتخاطب النفس دون وساطة بلغة التجريد ، التى لاتنتمى إلى المكونات الأرضية ، وقديما قالوا : إن الموسيقى لغة الروح ، ولذلك تقترن بالتراتيل الدينية والألحان المعبدية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التى تخلص النفس من ثقلها المادى وتحلق بها فى أعلى الآفاق بعيدا عن الأرض .

ثانيا : الموسيقى والوطن :

لقد ساهمت الأغنية الوطنية بنصيب كبير فى الدعوة إلى المثل العليا ، حيث أنها تقوم باثارة معانى اليقظة القومية وبث روح الحماسة والاقدام فى جل المناسبات ، كما تعمل على اذكاء الروح المعنوية فى انحاء الوطن ، بل أنها تخلق من الشعب جيشا مسلحا بالإيمان مستعدا لتلبية النداء يوم يدعى للبذل والفداء ، فالأغنية تقوم بتصفية المشاعر من نزعات الأنانية والجشع وحب الذات .

لقد كان الدعاة المنشدون والضاربون على الطبول والنافخون فى الأبواق ، إعلاما موجها إلى الجند يشحذ الهمم ويثير الشجاعة والاقدام ويقوى العزائم وروح التضحية والفداء عند العرب ، كما كانت الأغنية الوطنية للإنسان المصرى كظله ، فصاحبته يوم أن ثار على نابليون عام ١٧٩٨ م ثم على خليفته كليبر عام ١٨٠٠ م واستمر حتى طرد فرنسا عام ١٨٠١ م ، كما صاحبته أثناء ثورة سنة ١٩١٩ ، ومن قبلها ثورة عرابى سنة ١٨٨١ ... حتى كانت ثورة ١٩٥٢ م فسجلت الأغنية الوطنية بكل صدق وأمانة كل أحداث حياتنا الوطنية ، لقد ساندت الأغنية ثورة يوليو فى معاركها ، كما ناصرتها فى حركة البناء والتعمير ، كما شاركت الشعب كفاحه أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ م ، كما صاحبته أثناء نكسة ١٩٦٧ م فتخطى بها الأزمة التى تعرض لها حتى كان نصر أكتوبر ١٩٧٣ م .

وهكذا عبرت الأغنية الوطنية ومازالت عن الأحداث التى مر بها شعبنا البطل ، فكانت وثيقة مضيئة دُونت بالنغم والايقاع والكلمة .

ثالثا : الموسيقى والتربية :

التربية عملية توافق بين الفرد والمجتمع ، والتربية الموسيقية جزء لايتجزأ عن التربية بوجه عام ، فالتربية تعمل على خلق مواطن متكامل الشخصية يحس بالجمال ، ويساهم فى بناء وطنه ، والموسيقى تحتاج إلى الأساليب والمفاهيم التربوية لتحقيق ذلك ، فالموسيقى تبدأ ببساطة فى أداء دورها فى تربية الطفل ، مستمدة عناصرها من البيئة والتراث (حفل السبوع - نوم الطفل - تعلم الطفل المشى ... الخ) .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى حاسة السمع ، وهى الجهاز الذى نعتمد عليه فى التذوق الموسيقى ، وكانت هذه الحاسة أول مركز يأخذ فى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الترقى ، فيسمع الطفل الكلمات ويفهمها قبل أن يستطيع النطق على الوجه الأكمل .

كما أن الأغنية والنشيد يجعلان المدرسة مكانا مرغوبا فيه لدى الطفل ، فهما يُشعرانه بالجانب الجمالى الذى يجعله سعيدا ومتفائلا وبهذا يمكن للمدرسة أن تقوم بأداء وظيفتها على الوجه الأمثل .

نستطيع أن نعلم الطفل المسلم عن طريق الأغنية الأشياء المفيدة فى الأكل ، نعلمه كيف يحافظ على صحته ، كيف يكون أمينا ، كيف ينظم وقته ، نعلمه مكارم الأخلاق وبهذا نخلق منه مواطنا صالحا ، متكامل الشخصية .

يتعلم الطفل من خلال الغناء الجماعى كيف يتعاون ويتعامل مع من حوله ، يتعلم كيف يذوب بشخصيته مع الجماعة فيتحدون حسيا ووجدانيا وفكريا وثقافيا ، ويتم بينهما التعارف والتآلف والحب . كما يتعود الطفل من خلال الغناء الفردى الاعتماد على النفس والشعور بالمسئولية ، كما أن الغناء الوطنى يعطى للطفل الشعور بالانتماء للوطن فيزرع الحب فى نفسه ، فيتغنى بأمجاده ويعرف زعماءه وتاريخ بلاده .

ابن خلدون

ومن أهم أهداف الغناء التربوية للطفل ، معالجة بعض عيوب النطق والكلام عند الأطفال المتخلفين أو الخجولين ، مثل التهتهة واللجلجة والكلام المتأخر والكلام المضطرب والطمطمة (ابدال الطاء بالتاء) واللعثمة (عدم القدرة على نطق الحروف أو تكرار مقاطعها) والغمغمة (عدم تبيان مقاطع الحروف) وعدم تبيان الكلام ، على النحو الذى ورد فى كتاب «علاج الكلام» لحسين خضر

وهكذا وفى حالة الاختيار الموفق لأغانى الأطفال ، نستطيع أن نفيد الأسرة والمجتمع .

رابعا : الموسيقى والعلاج :

لقد أشار (أفلاطون) الى القوة العلاجية للأغنية ، كما اشار (فيثاغورث) إلى أنه يمكن استخدام الموسيقى كوسيلة لعلاج جنون الانسان ، كذلك يصف (جالينوس) أشهر عباقرة الطب الرومانى ، الموسيقى كترياق ضد سموم الأفاعى والعقارب ، كما أشار الفيلسوف العالم المسلم (ابن سينا) إلى أثر الموسيقى على الإنسان واستخدامها فى علاج المرضى .

«وقد استخدمت الموسيقى منذ فجر التاريخ لادخال البهجة والسرور على النفس بازالة حالة حزن أو توتر نفسى تكون هى أصل العلة النفسية ،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كذلك تبعد الموسيقى المرء عن وساوسه أو اعتقاداته المرضية الخاطئة إذا ما شغل بها وتفرغ للاستماع إلى أنغامها . كما استخدم الفراعنة الموسيقى فى تهدئة النفوس فى أثناء الجراحات ... وفى العصور الوسطى لجأ إليها المغنون والمنشدون لتهدئة نفوس الناس فى أوقات الطاعون وإنتشار الأوبئة القتالة . وجدير بالذكر أن دخول الموسيقى فى عالم الطب ، وتوظيف أنغامها فى علاج أمراض كثيرة نفسية وجسدية يعتبر من السمات البارزة لعصرنا الحديث حيث يقول (فولتير) :

«إن الهدف من الذهاب إلى الأوبرا هو مساعدة الهضم» .

فالمعدة تعمل بموجات ايقاعية تسمى التقلصات الدودية ، وهى أبطأ بكثير من ضربات القلب ، ومع ذلك فـ (شوجرمان) يقول إنها يجوز أن تتأثر بالإيقاعات الموسيقية ، فالموسيقى الهادئة تثير عواطف سارة تساعد على تنشيط الافرازات الهضمية .

وكما استخدمت الموسيقى كعنصر ترفيهى أثناء فترات الراحة والفراغ ، دخلت أيضا إلى أماكن العمل لزيادة الإنتاج لأنها تساعد على التخفيف من التوتر والملل والاجهاد المصاحب لهذه الأعمال .

● **المبحث الثانى : تأثير السماع من خلال مقدمة ابن خلدون**

وقد تحدث ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الخامس والثلاثين عن تأثير السماع ، قائلا :

«إن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك ، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب .... ولذلك تتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقية ..... ويغنون فيحركون نفوس الشجعان ... ولقد رأينا فى حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب ... إلخ» .

وفى مكان آخر يقول " .. لما خرج العزيز إلى فتح الشام كان معه خمسمائة من الأبواق" .

ومن أنواع الغناء التى عرفها عرب الجاهلية ، كان الغناء الحربى ، الذى كان على شكلين :

أولا : الارتجاز بالشعر

وكان يستخدم فى حالة التأهب لخوض المعركة ، وغالبا مايكون حوارا شعريا بين محاربين .

ثانيا : الأناشيد والأغانى الحماسية

وهى أغان جماعية الأداء ، يؤديها المحاربون ، أو يغنيها النسوة من ورائهم ، لبث روح الشجاعة والحماس فى المقاتلين .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرجز :

أن الرجز كان فوق مصاحبته للإنسان العربى فى خصوصيات حياته فى بيته وعمله وسفره ، إطارا للحماسة الحربية والفخر بالنفس أثناء القتال ... الرجز هو الايقاع الذى انصبت فيه هذه الأشعار ، أو فلتسمها الأغانى المرقصة ، فهو الوزن الأقدم للتعبير الشعرى الذى يصلح للصلة القدمى بين الأم ووليدها ، وهو ايقاع أو وزن يحفل بالحركة والنشاط والسرعة والحماسة .

فمن هذه الاشعار ما يرقص بها الذكر ومنها ما ترقص بها الأنثى ، فمن نماذج الأول قول أمنا التراثية :

ياحبذا ريح الولـــــد
ريح الخزامى فى البلـد
أهكذا كـــل ولـــــد
أم لـم يلـد مثلـى احـد

"وكان الملك الأشورى (شمس ادد) الأول ، المعاصر للملك البابلى حمورابى ، الذى حكم بلاد أشور قبل (٣٧٣٠ سنة من الآن) ، قد بعث برسالة لأحد عماله فى الأقاليم يطلب فيها منه تجنيد ثلاثة مغنين لمرافقة الحملة العسكرية الأشورية ، لكى يساهموا فى المعركة بتقديم الأغانى الحماسية واثارة حماس المحاربين الأشوريين" .

وهكذا ساهم الغناء منذ الممالك القديمة فى جميع جوانب حياة الإنسان . ثم تناول ابن خلدون قراءة القرآن الكريم ، حيث قال فى مقدمته :

"انكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعى فانه لاينبغى أن يختلف فى خطره ، اذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه لأن القراءة والأداء يحتاجان الى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث اتباع الحركات فى موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره ، وأمثال ذلك ، والتلحين ايضا يتعين له مقدار من الصوت لايتم إلا به من أجل التناسب الذى قلناه فى حقيقة التلحين ، واعتبار احدهما قد يخل بالآخر إذا تعرضا ... فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر فى القرآن بوجه وانما مرادهم التلحين البسيط الذى يهتدى اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه ، فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ... لأن القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده ، وليس مقام إلتذاذ بادراك الحسن من الأصوات ، وهكذا كانت قراءة الصحابة رضى الله عنهم كما فى أخبارهم .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم ، لقد أوتى مزمارا من مزامير داوود ، فليس المراد به الترديد والتلحين ، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والأبانة فى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مخارج الحروف والنطق بها .

موقف الإسلام من الغناء من خلال مخطوط (فرح الاسماع برخص السماع)

لاشك أن الغناء ظاهرة إنسانية واجتماعية ، يقوم بدور رئيسى فى تهذيب الذوق والأخلاق ، فهو شىء غريزى فطرى عريق بالنسبة للانسان الذى بدأ يقلد ماحوله من أصوات ، ثم اخترع الآلات الموسيقية ثم شارك بصوته مع الآلة التى صنعها .

وفى عصر صدر الإسلام حيث نشر الدين الحنيف وإقامة دولة الإسلام ، فكان من الطبيعى أن ينشغل الناس عن الموسيقى والغناء ، إلا أن الرسول ﷺ لم يبد أى اعتراض على أنواع الغناء مثل (الحداء) أو (النصب) وأغانى الأعياد والأعراس .

كما يجب أن نتذكر رعاية أشراف القوم لفن الموسيقى منذ خلافة عثمان ، والأثر الهام لأبناء الشعوب المفتوحة وتدفقهم على الحجاز ، فى اخصاب الغناء واثراء محتواه .

لقد احتل اللهو ركنا هاما فى حياة الناس منذ العصر الأموى ، حيث انصرف معظمهم إلى السماع واقتناء الجوارى والمغنيات إلى أن وصل العصر العباسى الذى صارت فيه الموسيقى موضوعا للدراسات الجادة .

تقسيم الإمام الغزالى للأصوات ، المسموعة :

القسم الأول : غناء الحجيج ولو مع الطبل والشاهين (مباح)
القسم الثانى : غناء للتحريض على الغزو والشجاعة (مباح) .
القسم الثالث : ما ينشده الأبطال عند اللقاء (مباح)

ملحوظة :

لابد أن تكون الكلمات والألحان والأصوات والآلات قوية صارمة .
القسم الرابع : صوت النياحة ونغماتها .
أ ـ منها ماهو محمود مثل البكاء على الخطايا والذنوب
ب ـ منها ماهو مذموم مثل النياحة على الأموات .
القسم الخامس : السماع فى أوقات السرور مثل الأعياد والأعراس (مباح) .

القسم السادس : سماع المغترب المتشوق للعودة للوطن (مباح)
القسم السابع : من أحب الله سبحانه وتعالى واشتاق للقائه (التعبير الصوفى) (مباح)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com